فسطاط سُبيطلة

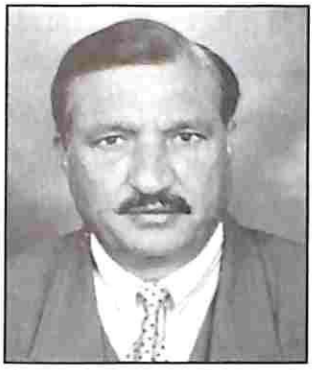

بقلم : أحمد أبو شاور
الأردن

المشهد الأول

خيام جيش المسلمين ، والرياح الشديدة تكاد تقتلعها ..

الجندي المسلم عبيدالله وهو يتشبث بعماد خيمته ، يصيح بزميله «سُليم» :

أعني يا سليم فدتك نفسي
فهذي الريح لم تترك متاعا

سليم وهو يتشبث بعماد خيمته:

دع الفسطاط وانظر من تأذى
من الأمراء ، أو حُبس افتزاغا

يخرج عبيدالله من تحت فسطاط الأمير وبيديه درعان ، عبيدالله موضحا:

تحسست المهود فلم ألاق
سوى درعين من أثر الرفاق

ثم ينظر إلى الجياد وقد اختلف لونها بفعل الريح والمطر وهاله ما رأى من احمرار :

ودوني الخيل من عصف تأذت
فأدمت سَوْرة الرمل المآقي

سليم مطمئنا لعبيدالله:

لها الجفن القدير لذود رمل
فلا تفزع على إبل وخيل

يقبل نحوهما أحد قادة المسلمين وهو « عمير» قائد فرقة الاستطلاع ، فيسلم عليهما ويسلمان عليه من غير مصافحة .. فيبادره عبيدالله بالسؤال:

فما خبر الجيوش فدتك نفسي
وما عدد الذين وراء ترس؟

عمير مكابرا:

قليل أم كثير ، ليس هذا
بمثني همة ومضاء نفس

يطرق عبيدالله ، ويسرح بخياله بعيدا ، سليم لعمير بشيء من الاهتمام:

كأنك قد رأيت قوى بحال
نبات الأرض أو عدد الرمال

عمير بأسى واضح:

رأيت الأرض قد ملئت بجيش
وجند بات يكسوها الحديد
وفرقتنا الصغيرة قد أحيطت
«كفُلكٍ» حوله انعقد الجليد

يصمت هنيهة ثم يقول مقررا بإحباط:

فما للكر من سبل ليؤتى
وما للفر من قتل سبيل

يغتم سليم من كلمات عمير ، وتتملكه الرغبة في زجره لكنه يكظم غيظه ويسأله :

فما رأي الأمير بما رأيتا؟

عمير مجيبا وراسما شارة الصمت بيده على فمه:

تنحى جانبا وأشار «صمتا»

سليم مستفسرا منه بشيء من الغلظة :

فَلِم أخبرت عن أمر عصيتا

عمير مبررا:

لأني لم أطق قهرا وكبتا!

يرفع عبيدالله رأسه بعد تفكير طويل ، وقد ظهرت على ملامحه رغبته في إبداء رأيه في الأمر ... عبيدالله

الله مستفسرا من عمير:

فـمـا رأي الأمـيـر إذا أتينا
بفـعـل يوسع الأعـداء وهنا؟
فـإن خـديعـة في زحف جـيش
تريع كـتـائبـا وتهـد حـصنا

سليم لعمير مازحا ومتندرا من قول عبيدالله :

كـأني بالمغـيـرة أو بعـمـرو [1]
يزفـان الدهاء لنا نجـاة

عبيدالله بثقة وإصرار:

ونصرا من يد الرحمن حصرا
وليس لـنيله مـنا انفـلاتا

عمير لعبيدالله بنزق:

فـقل لي مـا رأيت فـإن نفـسي
كـقـوس كـسـرت فـغـدت فـتـاتا

يشرح عبيدالله لسليم وعمير خطة دهائه بحركات من شفتيه وإيماءات من رأسه ويديه ، ويظهر اقتناع عمير وسليم من خلال ملامحهما .. وابتساماتهما ..

المشهد الثاني

عبدالله بن سعد بن أبي سرح قائد جيش المسلمين في أصحابه ومنهم عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير على جيادهم ينظرون عن بعد إلى جيوش البربر وقد أحاطت بجيش المسلمين من كل جانب .

يلمح عبدالله بن عمر ثلة من جنود المسلمين وهم يتبارزون بالسيوف فوق ربوة عالية ، يجيل نظره فيرى العديد من الثلل التي تقوم بهذه المبارزة ، فيتوجس خيفة فيقبل نحو إحداها ليستطلع ويستوضح الأمر... وما إن يدنو من إحدى الفرق المتبارزة حتى يخرج إليه من بين الفرقة «سليم» قائلا :

على رسل الأمـيـر ، فـقـد ترانا
نريع الخـصـم في هـذا المكان

ثم يكشف سليم لعبدالله بن عمر عن رجله وقد غلفت بالجلود وعن صدره وقد جعل الدرع تحت ثيابه، ثم يتابع قوله موضحا الغاية من هذه المبارزة :

نواري بالثـيـاب درعـا وشنا
ونرسل نحـوها فـيض الطعـان
ونكثـر دونهم من فـعـل هذا
فـيـعلم رهطهم في الصـولجـان
بـأنـا لا نموت بـطـعـن رمـح
ولا نـهـوي على وقع السنان

ينظر عبدالله بن عمر رضي الله عنهما إلى جيش البربر ، فيرى جنودهم قد صعدوا على أجساد بعضهم بعضا ليتحققوا مما شاع فيهم من أخبار..

يهز عبدالله بن عمر رأسه متفهما ، وترتسم على شفتيه ابتسامة تعبر عن استحسانه للفكرة. ثم يقول :

فما حصر الدهاء برأس عمرو
ولا حـفـص المغـيـرة قـد توارى
فـسبـحان الذي أوحى لعبد
من الأعـراب مـا ينهي الحـصـارا

ثم يلوي عنق فرسه وينطلق راجعا ..

المشهد الثالث

جمع غفير من جنود البربر وقد التفوا حول قائدهم، وعيونهم تتجه نحو فارس منهم قد أقبل من ناحية جيوش المسلمين ..

يترجل الفارس عن جواده ثم يقبل نحوهم، ويتوجه نحو قائدهم ليقول:

لعـمـري مـا رأيت بهم جـراحـا
وقـد غلوا ببـعـضـهم الرمـاحـا

ينظر جنود البربر لبعضهم نظرات اندهاش وفزع. يستطرد الفارس قائلا :

كـأن جلودهم من خف فـيـل
تجـفـف مـدة فـأبى اجـتـراحـا

يكثر القيل والقال في جنود البربر ، وتتعالى أصوات الرفض والاحتجاج ، فينسل قائدهم ، ويصعد إلى ظهر جواده ، وينطلق مبتعدا ..

المشهد الرابع

ملك البربر (جرجير) وقد جلس على البرذون ، وحوله الجواري ، فيما يقف دونه قائد جيشه قائلا :

حصرنا جيشهم من كل صوب
فليس بوسـعـهم كـر لحـرب

ثم يستدرك قائلا لجرجير الذي انشغل بمداعبة قرد صغير قفز إلى حجره :

ولكني رأيت بهم عجابا
أطار اللب مني والصوابا
فإن فطن الجنود إليه بتنا
نكابد من صدى الأمر اضطرابا

جرجير لقائد جيوشه ولم يتنبه لما قال القائد :

غدا تهب الوحوش رفات جيش
وتبقي في غنائمك الكعابا
وإن كان الخليفة قد أجابا [٢]
بخمس الخمس عن نصر ثوابا
فإني قد وهبت إليك ربعا

وهو يشير بيده للمسير:

وباقي الغنم تودعه الجرابا

ينطلق به البرذون ببطء فيما يسير القائد على قدميه خلف جرجير قائلا :

ولكني أردت جلاء أمر

يقاطعه جرجير قبل أن يتم كلامه بقوله :

بعيد النصر تستجلي أمورا
وتسقي الجيش من فرح خمورا

يبتعد به البرذون وتبدأ جواريه يهفهفن عليه بريش النعام فيما تبدأ قيانه بعزف الموسيقى .

يبقى قائد جيشه في مكانه متلبثا متعجبا مقهورا

المشهد الخامس

عبدالله بن سعد يتوسط عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير ، وقد اعتلوا على ظهور جيادهم في مكان عال يشرف على جيوش جرجير.

عبدالله بن عمر وقد رأى جرجير معقبا :

أرى جرجير في أقصى خيول
على البرذون في ظلل حسان

يتفهم عبدالله بن سعد كلمات عبدالله بن عمر ، فيعقب على ما يرى بقوله :

تهف عليه بالريش الصبايا
ويطرب سمعه عزف القيان

يحدق عبدالله بن الزبير من مكانه بموكب جرجير فتتسع عيناه ، وتبدوان كعيني الصقر الذي يلمح فريسة طال انتظارها لظهورها ، فيقول للأميرين :

أكر عليه في نفر قليل
كرار الخيل إذ حملت رسولا

ثم ينطلق بجواده نحو جيش البربر ، وما إن يخطو به جواده حتى يتبعه بعض الفرسان من المسلمين .

يتلو عبدالله بن سعد قول رب العزة والجلال احترازا لعبدالله بن الزبير من القتل : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ **(يس) .**

يقترب عبدالله بن الزبير بجواده من جيش البربر ، فيما تلاحقه نظرات الأميرين حتى يدنو من جرجير الذي يتلبث فوق برذونه ، وما إن يرى الشر في عيني عبدالله بن الزبير حتى يهم بالفرار ، فيتبعه ابن الزبير فيطعنه بالرمح ، ثم يجهز عليه بسيفه ، ثم يأخذ رأسه فينصبه على رأس الرمح ويصيح بأعلى صوته: الله أكبر الله أكبر ..

يرى جنود البربر ما حل بملكهم فيتفرقون في كل الاتجاهات . ■

الهوامش:

(١) المغيرة : المغيرة بن شعبة ، وعمرو عمرو بن العاص والمغيرة وعمرو هما من دهاة العرب .

(٢) الخليفة : عثمان بن عفان وقد وعد القائد عبدالله بن سعد بن أبي سرح خمس خمس الغنائم إذا فتح الله عليه ذلك الفتح بإفريقيا .